اللوحة الرابعة منعٌ أم امتناع طابق الخبر حديث أُم المؤمنين، عندما قالت: ما ترك رسول ا شيئاً، ولا أوصى بشيء، فقولها الحقّ الذي ليس بعده قول قائل، ولا رؤية راء، ولا سمع سميع. فلقد نفت وجود تركة للنبي، حتّى موقت رحيله، نفي شاهد عيان، ورفيق عِشْرة حضر لحظة الوفاة، وسمع منه عليه الصلاة والسلام آخر ما نطقت به شفتاه. لمحته في ذلك اليوم القائظ[1550] الحزين من صيف شبه الجزيرة، يميل على الزهراء وهي بجواره، فيسرّ لها كلمات، فتنحدر على وجنتيها الدموع ... ثم يسرّ لها أُخريات، فينكشف الكرب، وتتبدّى باسمةً طلقة الأسارير. وشهدته بعد هذا وقد جيء له بإناء فيه ماء بارد، راح يغمس يده فيه، ويمسح بها على محيّاه، وسمعته وقد شقّ عليه النزع، يضرع إلى ربّه ويدعوه: «اللّهم أعنّي على سكرات الموت»[1551]. فتحسّ به يثقل في حجرها، ويروّعها الموقف، ويأخذها هوله، فلا تملك إلاّ أن تجمّد عينها عليه، وقلبه يكاد يكفّ عن الخفوق.